

ججاجة البلاغة من العرف إلى التأجيل

قراءة في مرحلة السليقة والذوق

الطالب: عماري مالك

إشراف الدكتور: داود احممد

جامعة ابن خلدون - تيارت - الجزائر

جامعة ابن خلدون - تيارت - الجزائر

بلغ العرب الجاهليون في ممارستهم فن البلاغة عن طريق السليقة والذوق مبلغا راقيا ودرجة عالية من الجمال جعلتها ترجمانا لمشاعرهم، والسلاح الذي يزود عن عرضهم وشرفهم، فالعربي بفطرتة وسليقته كشف عن قدرة هائلة في تعاطيه لفن القول من دون الحاجة إلى سابق قاعدة يقيس بها هذا النموذج الخاص من الكلام، لقد أصبحت السليقة هي الحكم في بلوغ البلاغة ذروة الرقي من حيث دقة النظم، وبراعة التصوير، وبديع الإيقاع والجرس. لم تقتصر هذه الظاهرة على مرحلة الجاهلية؛ بل تعدته إلى مرحلة صدر الإسلام وما تلاها من عصور كالأُموي والعباسي، فلكل مرحلة من هذه المراحل سحرها الذي أوصل صوتها إلى الأحوال التي تخاطب العقل وتلامس العاطفة، وتحدد اللطائف البيانية والأسرار الجمالية، بما وهبه هؤلاء العرب من حس بلاغي ناجم عن طبع وسليقة، وهذا بالطبع ما أهلها إلى اكتساب الدرجة العالية من الإمتاع والإقناع.

الكلمات المفتاحية: البلاغة؛ الحجج؛ الإقناع؛ السليقة؛ الذوق؛ الإمتاع؛ الجمالية؛ الاستمالة؛ الشعرية.

Argumentative Rhetoric from Custom to Rooting/Originality Perusal in the Phase of Instinctiveness and Taste

Abstract : The Arabs before Islam achieved in the practice of the art of rhetoric in an innate and tasteful manner, to a high degree and a range of beauty which made it an interpreter of their feelings and the weapon who defends their honour and dignity. The Arab man with his nature and instinct revealed a huge ability to practice the art of diction without the need for a pre-requisite rule to measure this particular model of speech, his instinctive nature became the rule to reach the pinnacle of rhetorical sophistication in terms of the precision of the system, the ingenuity of the figure and the exquisite rhythm and alliteration. This phenomenon was not limited only in the period which preceded Islam, but also beyond that of the beginning of Islam and what followed it as eras even that of the Umayyads and the Abbasides, because at each of these eras, its magic,

تاريخ تسليم البحث: 14 ماي 2016.

تاريخ قبول البحث: 08 ديسمبر 2016.

حجاجية البلاغة من العروبة إلى التأصيل - مجلة فصل الخطاب

conveying its voice to the places communicates with the reason, touches the feelings, determines the subtle figures and the secrets of beauty. With what they have been gifted of rhetorical sense due to a nature instinctive and innate, and that is of course what qualified him to acquire a high degree of pleasure and persuasion.

Keywords: Rhetoric, Argumentation, persuasion, instinctiveness, taste, enjoyment, aesthetic, inducement, poetic.

توطئة: مارس العرب البلاغة فصارت بالنسبة لهم ظاهرة فنية متفردة تثير فيهم الإعجاب، فأنزلوها قدرها وأثبتوا مكانتها، وأولوها الاهتمام إلى درجة أن أصبحت تسري في عروقهم: "فكان لا يكون العربي في نظرهم كاملا ما لم يبلغ من لسانه الغاية"¹ وهذا ما أكده النبي -صلى الله عليه وسلم- من حديث العباس-رضي الله عنه- أنه سأله، فقال: يا رسول الله فيم الجمال؟ قال-صلى الله عليه وسلم-: في اللسان"².

بالمقابل لم تغفل البلاغة العربية خاصية الإقناع، وإن لم يأخذ حظه من الدراسة كالتى عرفت مع البلاغة، ومع هذا فالذي تقرر عند الكثير من البلاغيين* من خلال المفاهيم المقدمة للبلاغة توحى بأن البلاغيين القدامى طالما اعتبروا أن لا فصل بين البلاغة والحجة باعتبارها آلية تبرز القدرة على الكلام والتفكير، وعاملا من العوامل المؤثرة التي تدرك منها المقاصد وتفهم منها المآلات. وهذا ما يستفاد من قول الجاحظ في تعريفه للبلاغة نقلا عن العربي، والهندي أنها: "البصر بالحجة"³. ومن قول أبي هلال العسكري نقلا عن عبيد الله بن عتبة أن: "البلاغة دنو المآخذ وقرع الحجة"⁴.

1- حجاجية البلاغة الشعرية/ العصر الجاهلي:

وصلت البلاغة عند العرب الجاهليين مستوى راق فمثلت لديهم رأس الجمالية وعين منطق الاحتجاج، والناظر في تلك التراكيب يرى آفاق تلك اللمسات البيانية من تعبير عذب، ونسج بديع، وتصوير فني دقيق، ومعنى ظاهر جلي وآخر مستور خفي، وبهذا نزل القرآن واصفا إياهم فقال: وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ⁵، وقال أيضا: وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ⁶، ومع هذا فلم يجد العرب أنفسهم مضطرين إلى تقديم تفسير لهذا النظم ولا أن يبينوا علته، بل اكتفوا بسليقتهم وذوقهم، وهذا ما يفسره قول قدامة: "لقد كان للعرب في حياتهم الأولى ذوق فيهم طبع كانوا بهما في غنى عن الشرح والتحليل والتوجيه والتعليل لأحكام النقد ولأصول البيان العربي ومذاهبه"⁷، ومع ذلك فلا يمكن نفي بعض الأحكام النقدية المسجلة في تلك المرحلة، والتي لم ترق إلى درجة أن تكون منهجا تأصيليا، إنما يمكن القول أنها مجرد "أحكام عابرة أطلقها الشعراء والمحكمون معتمدين على الذوق الفطري الذي عرف به العرب"⁸

من منطلق هذا أصبح البليغ في عرف العرب من: "يعبث بالكلام ويقوده بألين زمام...إذا أذكى سراج الفكر أضواء ظلام الأمر يستنبط حقائق القلوب ويستخرج ودائع الغيوب".⁹ والذين إذا تحدثوا " جَلُّوا بكلامهم الأبصار العلية وشحذوا بمواعظهم الأذهان الكليّة ونهوا القلوب من رقدتها".¹⁰ ويأتي أبو حيان التوحيدي (ت:414هـ) ليؤكد لنا حقيقة راسخة متحققة أن "...لا فخر إلا بالبلاغة".¹¹

حديثنا عن البلاغة في هذه المرحلة يحتم علينا القول بأنها في عرف البلغاء متعلق من متعلقات الشعر، والذي مثل عند العرب الجاهليين رأس البلاغة والفصاحة، فهو: "ديوان العرب وعنوان الأدب".¹² ولا شك أن " نفس أدبهم الذي خلفوه يحمل في تضاعيفه ما يصور فصاحة منطقتهم، وكيف كانوا يتأتون الكلام حتى يبلغوا منه كل ما كانوا يريدون من استمالة القلوب والأسماع"¹³ وهذا -أيضا- ما ارتأه بعض النقاد المعاصرين على أن للشعر العربي دورا "في التداول والإقناع والتأثير في السلوك...أي أنه يتخطى حدود الإمتاع إلى الإنجاز".¹⁴ وفي مثل هذا يقول الشاعر:¹⁵

الشَّعْرُ شَيْءٌ حَسَنٌ ** لَيْسَ بِهِ مِنْ حَرْجٍ
يَحْكُمُ فِي لُطَافَةٍ ** حَلَّ عُقُودَ الْحُجَجِ
كَمْ نَظْرَةٌ حَسَنًا ** فِي وَجْهِ عَذْرِ سَمِجٍ

من الواضح أن البلاغة من هذه الناحية قد أصبحت أرقى درجات الكلام وأقواها أثرا في النفوس، وهذا بلا شك ما جعل الشاعر الجاهلي في قومه أمير الكلام، المحامي والمنافع عن قضايا عشيرته يحسب له ألف حساب، يؤثّر ويقنع ويسحر ببلاغته، ومع ما امتاز به من نزعة ذاتية وقبلية كثرت منازعاته، واشتدت مخاصماته واحتدمت مناظراته، فكان بمثابة الدرع الواقي، والسهم القاتل لحدّ اعتبار تلك المخاصمات والمناظرات التي كان يخوضها الشاعر "أشبه ما تكون بالمعارك على أن القتال هنا قتال بالكلمة لا بالسيف، والمقارعة هنا بالحجة والبيّنة لا بالرمح والنبال".¹⁶ من هنا، هل يمكن القول أن البلاغة العربية ارتبطت في هذه المرحلة بوظيفة الإمتاع دون وظيفة الإقناع؟ أم بهما معا؟

يظهر أن بلاغة مرحلة السليقة مع ما فيها من إمتاع ولذة تحدثها في النفس، لم تخل من الارتباط بالوظيفة الإقناعية ف " لم تقتصر وظيفة الشعر على هذا فقط فيه عبروا عن مختلف العواطف والأحاسيس التي تخالجهم وعن طريقه كانوا يؤثرون في غيرهم ويحملونهم على الحماس ويغرسون فيهم أخلاقا ويدلّونهم على حسن شيم"¹⁷ ويؤكد قول الشاعر:¹⁸

لَيْسَ يُسْتَحْسَنُ فِي وَصْفِ الْهَوَى ** شَاعِرٌ يُحْسِنُ تَأْلِيْفَ الْحُجَجِ

محاكاة البلاغة من العروبة إلى التأصيل

إن المتتبع لما روي من آثار في هذا السياق يجد الكثير، لكن لضيق مساحة الكتابة أثرنا بعض النماذج على سبيل التمثيل لا الحصر نحقق بها الحاجة وتقوم بها الحجة، ومن ذلك: ما يروي عن عبيد بن الأبرص أنه أنشد أبياتا من الشعر يستعطف بها الملك حُجْر بن الحارث (أبو امرئ القيس) لما رأى ما يفعل الملك بقومه من التنكيل فقال:

يا عَيْنُ فَايْكِي ما بَنِي ** أَسَدٍ فَهْمُ أَهْلِ النَّدَامَةِ
أَهْلُ الْقِيَابِ الحُمْرِ وَالذِّ ** عَمِ الْمُؤَبَّلِ وَالْمُدَامَةِ
وَذَوِي الْجِيَادِ الجُرْدِ وَالِ ** أَسَلِ الْمُتَقَفَّةِ الْمُقَامَةِ

إلى أن وصل إلى قوله:

إِذَا تَرَكْتَ تَرَكْتَ عَفْ ** وَأَوْ قَتَلْتَ فَلَا مَلَامَةَ
أَنْتَ الْمَلِيكُ عَلَيْهِمْ ** وَهُمْ الْعَبِيدُ إِلَى الْقِيَامَةِ

فعطف عليهم الملك ، ورق لهم، وعفا عنهم، وردهم إلى بلادهم.¹⁹

ويظهر جليا أن بلاغة هذه الأبيات قد كان لها في نفسية الملك حُجْر بن الحارث من شدة الوقع ما جعلته يعدل عما كان يقوم به من تنكيل لقوم عبيد بن الأبرص، لقد تأثر حُجْر بن الحارث بسحر بيان الشاعر فحرك فيه جانبا من الإنسانية من خلال تلك الجمالية التي فرضت سلطتها وهيمنتها عليه، وما هو مؤكد أن هذا الاستعطاف من عبيد بن الأبرص لم يكن له كل هذا الوقع لولا تلك البراعة في تصوير المعاني وعرضها في قالب بلاغي يوقظ النفس ويشدها إليه، فالعرب تلين وتتأثر للبلاغة لا للفكرة التي تحملها، وفي معرض هذا يقول ابن رشيقي: " وما زالت الشعراء قديما تشفع عند الملوك والأمراء وذوي قرابتها فيشفعون بشفاعتهم وينالون الرتب بهم"²⁰

ومن ذلك أيضا ما يروي عن النابغة في " اعتذارية يتودد فيها النعمان، وينفي ما وشت به بنو قريع بن عوف، ويختصهم بالهجاء ويتهمهم بالوشاية ويبين أن ما أتى النعمان كذب ولم يكن ليقوله، وهو قول ضعيف تافه... يقول:

لَعَمْرِي وَمَا عَمْرِي عَلَيَّ يَهَيِّن ** لَقَدْ نَطَقْتُ بِطُلًّا عَلَيَّ الْأَقَارِعُ
أَقَارِعُ عَوْفٍ لَا أَحَاوِلُ غَيْرَهَا ** وَجُوهُ قُرُودٍ تَبْتَغِي مَنْ تُجَادِعُ

لقد ترك في تلك الألفاظ اعتذاره عما بلغ بنو قريع النعمان ولم يذكر له القصة الموشى بها، لكنه أشار إليها عابرة معبرة-جمعها دون تفصيل-كاملة ذات وصف واحد أبان عما يريد أن يعلمه النعمان وهو أن ذلك كله الذي بلغك وهو كذا وكذا.. كل ذلك بطل نطقت به علي الأقرع"²¹ وهو مع هذا لم يترك للنعمان منفذا يوقع في نفسه الشك في صدق ما يدعيه، وذلك بطريق البلاغة لا الفكرة التي تحملها كما أسلفنا الذكر.

وفي السياق نفسه حادثة قتل عنزة الفوارس ضمضما المري، وهو القائل يتوعد ابنه حصينا وهرما، وبلغه أنهما يشتماناه ويندران دمه:²²

وَلَقَدْ خَشِيتُ بِأَنْ أُمُوتَ وَلَمْ تَدُرْ ** لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي ضَمَضِمَ
الشَّائِمِي عِرْضِي وَلَمْ أَشْتَمُهُمَا ** وَالنَّادِرِينَ إِذَا لَمْ أَلْقُهُمَا دَمِي
إِنْ يَفْعَلَا فَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاهُمَا ** جَزَرَ السَّبَاعِ وَكُلَّ نَسْرِ قَشْعَمِ

وقد بدا لنا من خلال النموذج الذي قدمناه " أن الحروب-وما أكثرها عند العرب الجاهليين- من أعظم المواطن التي تهيح فيها النفوس بالشعر للتحريض على القتال"²³

ما يمكن قوله أن البلاغة قد تركت أثرا في نفوس العرب الجاهليين من خلال منطقتها الداخلي الذي يمتاز بـ " التأثير العاطفي والاستهزاء التخيلي، والتشبع الذاتي بجمالية اللغة وأسلوبيتها"²⁴، وأصبح العربي بذوقه وسليقته يتلمس مواطن الجمال ويتأثر بها من خلال أبعاد خفية تتحكم في تلك السنن التي تحرك في نفسية المتلقي نازع الخير تارة ونوازع الشر تارة أخرى.

(2) حجاجية البلاغة الشعرية/ صدر الإسلام:

مع بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم- تفاعا العرب بكلام من مثل كلامهم لكنه زاد عنهم بلاغة وفصاحة إلى درجة عجزهم عن الإتيان بمثله وهم أرباب البلاغة وحذاق البيان. وأصبحت البلاغة القرآنية أقوى استمالة وتأثيرا على مشركي قريش، وفي قوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ²⁵ " تحقيق لهذه الصفة العالية من اختصاص الرسول دون قومه بكمال اللسان، والقدرة على الحجة، والإصابة لمواقع الإقناع"²⁶. لكن، هل غير الإسلام من طبيعة العربي المفتون بفنون القول إزاء جمال البلاغة وسحرها؟

صحيح أن الشعر خفت بريقه وخبت جذوته وقلت سطوته بسبب التفات العرب إلى بلاغة القرآن التي أعجزتهم عن الإتيان بمثلهما، لكن بقي سحر البلاغة الشعرية يهيم على نفوس العرب، لدرجة أن أصبح العربي أكثر افتتانا بمظاهر الجمال البلاغي، وبقيت كما هي تحكم سطوتها وتبين عن أنفس المعاني التي تحويها، ترمز وتشير وتومئ وتلمح، فازداد تأثيرها، ومن ذلك ما " أخرجه الحاكم عن ابن عباس-رضي الله عنه- أن الوليد بن المغيرة جاء النبي- صلى الله عليه وسلم- فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقى له، ثم قال مقولته المشهورة: والله إن لقوله الذي يقول حلوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته"²⁷ ويرى مازن المبارك " أن الوليد بن المغيرة قد أدرك بلاغة القرآن، وخضع وأذعن حتى استفزته حمية الجاهلية فعاد إلى عناده، وسار بهوى أصحابه"²⁸ ومع هذا فلم يشك الوليد في إعجاز بلاغة القرآن وسحر بيانه، كما لم يرد في نيته الطعن فيه ولو على سبيل المعاندة والمكابرة، فهو أدري بعظم هذا الكلام وعلو منزلته.

مجاوبة البلاغة من العروبة إلى التأصيل. مجلة فصل الخطاب

و"هذا عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- وهو صاحب المعرفة بكلام العرب، وهو الذي حكم للناطقة وحكم لزهير... يسمع آيات من سورة (طه) فتنفذ إلى أعماقه وتأسره فيبادر إلى الإسلام"²⁹

وها هو ذا النبي-صلى الله عليه وسلم- يقعد كعب بن زهير على منبره لينشد هو بدوره:

بَأَنْتَ سَعَادُ فِقَلْبِي الْيَوْمَ مَثْبُولٌ ** مَتَّيْمٌ إِثْرَهَا لَمْ يَجَزَ مَكْبُولٌ

حتى بلغ قوله:

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ ** وَصَارِمٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُورٌ

أوماً إلى الناس باستماع قوله.³⁰

لقد أدرك النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك وهو أفصح العرب فنجده يقول: ".والذي نفسي بيده، لكأن ما ترمونهم به نضح النبل".³¹ لما لقوة الشعروما يحويه من بلاغة من شدة التأثير على النفوس. ويقول في موضع آخر: " وإن من البيان سحرا، وإن من الشعر حكما".³² ثم نجده يؤكد -في سياق آخر- أن لفعل البلاغة المتعارف عليها بين العرب السلطة القاهرة والحجة الدامغة والبرهان الساطع بقوله: " إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه وإنما أقطع له قطعة من النار"³³. واللحن هنا ليس بمعنى ترك الصواب، إنما أراد " تكلم بمعنى كلام لا يفتن له ويخفى على الناس...وجاء عند ابن الأثير: أراد أن بعضكم يكون أعرف بالحجة وأفطن لها من غيره"³⁴ وهذا الذي حذر منه النبي -صلى الله عليه وسلم- في سياق حديثه جاء "في معرض الإفحام وقوة الحجة والقدرة على الإقناع، وإثارة الإعجاب، وشدة وقع الكلام في النفس"³⁵

ووصل الأمر بقريش منعها الأعرشى وصرفه عن مدح النبي-صلى الله عليه وسلم- بما

أجزلوا له الحباء، في قصيدة أراد أن يمدح فيها النبي-صلى الله عليه وسلم- يقول:

أَلَمْ تَعْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا ** وَعَادَكَ مَا عَادَ السَّلِيمَ الْمَسْهَدَا

حتى وصل إلى قوله:

نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا تَرُونَ وَذِكْرُهُ ** أَغَارَ لَعْمَرِي فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَدَا

لَهُ صِدَقَاتٌ مَا تَغِيبُ وَنَائِلٌ ** وَليْسَ عَطَاءُ الْيَوْمِ مَانَعَةٌ عَدَا

أَجَدَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ ** نَبِيُّ الْإِلَهِ جِبْنَ أَوْصَى وَأَشْهَدَا

وهذه الخشية من قريش لوصول هذا المديح إلى أسماع العرب من الأدلة على ما كان

لشعره من التأثير في العرب، وشدة توقيرهم وحذرهم منه.³⁶

ولما سمع عمر-رضي الله عنه- قول الناطقة الذبياني:

وَلَسْتُ بِمُسْتَبْقٍ أَحَا لَا تَلْمُهُ ** عَلَى شُعْثٍ، أَيُّ الرَّجَالِ الْمُهْدَبِ؟

سأل عن قائل هذا البيت فأخبر بأنه النابغة الذبياني، فقال: هو أشعرهم³⁷ والسر في تفضيل عمر-رضي الله عنه- النابغة والتأثر بقوله هو روعة ذلك الإيجاز، "فكأنه يتوجه إلى المخاطب قائلاً: لن تستطيع استبقائه على غير زلل لأنك حينئذ تطلب من لا نقيصة في خلقه، ولا قبح في سلوكه، ولن تجد من تريد ولن تنال ما تسعى إليه، فذلك محال لا يتحقق، وعندئذ يجب أن تركز إلى الحقيقة الواقعية الملموسة التي لا مراء فيها.. أي الرجال المهذب"³⁸.
ومما يروى - أيضا - أن المفضل الضبي قال: قدم الفرزدق الكوفة فمرّ بمسجد بني أقيصر وعليه رجل ينشد قول لبيد:

وَجَلَّ السُّيُولُ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا * * زُبُرٌ تُجَدُّ مُتَوَنِّهَا أَقْلَامُهَا

فسجد الفرزدق، فقيل له ما هذا يا أبا فراس؟ فقال: أنتم تعرفون سجدة القرآن وأنا أعرف سجدة الشعر!³⁹ وأنتم ترون دقة التشبيه وفرادته وغرابته، حيث شبه الشاعر السيول وما تحدثه من آثار مستقيمة متتابعة على الطلل البالي، بسطور على كتاب، والملاحظ أن فرادة وجمالية هذا التشبيه جعلت الفرزدق -ومن هو الفرزدق- يقف موقف المسحور لتأثره بجمال التشبيه الذي تضمنه بيت لبيد.

2- حجاجية البلاغة الشعرية/مرحلة الأمويين:

لا يختلف الحال على ما كانت عليه البلاغة في مرحلة صدر الإسلام، فقد بقي الذوق يميز هذه الفترة على الرغم من ظهور بوادر التأصيل لفن البلاغة، ونذكر من ذلك وما يروى عن معاوية- رضي الله عنه- أنه قال لابنه: "يا بني، ازو الشعر وتخلّق به، فلقد هممت يوم صقّين بالفرار مرات، فما ردّني عن ذلك إلا قول ابن الإطنابة:⁴⁰

أَبَتْ لِي هَمَّتِي وَأَبَى بِلَأْيِي * * وَأَخَذِي الْحَمْدَ بِالثَمَنِ الرَّبِيحِ
وَإِقْدَامِي عَلَى الْمَكْرُوهِ نَفْسِي * * وَضَرْبِي هَامَةَ الْبَطْلِ الْمُشِيحِ
لِأَذْفَعِ عَنِ مَكَارِمِ صَالِحَاتٍ * * وَأَحْمِي بَعْدُ عَنِ عِرْضِي صَحِيحِ

ومما يروى -أيضا- في كتابه الأمالي أنه " ... لما هلك أبان بن الحجاج، وأمه أبان بنت

النعمان بن البشير، فلما دفنه قام الحجاج على قبره فتمثل بقول زياد بن الأعجم:⁴¹

أَلَا نَ مَا كُنْتُ أَكْمَلُ مَنْ مَسَى * * وَافْتَرْنَا بِكَ عَنْ شِبَاةِ الْقَارِحِ
وَتَكَامَلْتُ فِيكَ الْمُرُوءَةَ كُلَّهَا * * وَأَعْنَتَ ذَلِكَ بِالْفَعَالِ الصَّالِحِ

فلما انصرف إلى منزله قال: أرسلوا خلف ثابت بن قيس الأنصاري، فأثاه. فقال، أنشدني

مرثيتك في ابنك الحسن، فأنشده:

قَدْ أَكْذَبَ اللَّهُ مَنْ نَعَى حَسَنًا * * لَيْسَ لِتَكْذِيبِ مَوْتِهِ تَمَنُّ
أَجُولُ فِي الدَّارِ لَا أَرَاكَ وَفِي الدَّارِ أَنَا سِ جَوَارُهُمْ غَبْنُ
بَدَلْتُهُمْ مِنْكَ لَيْتَ أَنَّهُمْ * * أَضْحَوْا وَبَيَّنِّي وَبَيَّنَّهُمْ عَدْنُ

حجاجية البلاغة من العروبة إلى التأصيل

فقال له الحجاج: ارث ابني أبان، فقال له: إني لا أجد به ما أجد بحسن. فقال: وما كنت تجد به؟ قال: ما رأيته قطّ فَشَبِعْتُ من رؤيته، ولا غاب عني قط إلا اشتقت إليه، فقال الحجاج: كذلك كنت أجد بأبان.

والشاهد من هذه الرواية التي أوردتها هنا في هذا الباب هو تأثير الحجاج بمرثية ثابت بن قيس الأنصاري لابنه الحسن، التي نزلت من القلب منزلة الماء والثلج والبرد.

ويورد محمد هاشم عطية رواية لأبي الفرج الأصبهاني يذكر فيها أن هشام بن عبد الملك -وهو أمير- سأل خالد بن صفوان، وهو من بلغاء الناس، أن يصف له أولئك الثلاثة فقال: أما أعظمهم فخرا، وأبعدهم ذكرا، وأحسنهم عدرا، وأشدهم ميلا، وأقلهم غزلا، وأحلاهم علالا، الطامي إذا زخر، الحامي إذا زار، والسامي إذا خطر، الذي إن هدر قال، وإن خطر صال، الفصيح اللسان، الطويل العنان، فالفرزدق، وأما أحسنهم نعتا، وأمدحهم بيتا، وأقلهم فوتا، الذي إن هجا وضع، وإن مدح رفع، فالأخطل؛ وأما أغزرهم بحرا، وأرقهم شعرا، وأهتكمهم لعدوه سترا، الأغر الأبلق، الذي إن طلب لم يسبق، وإن طلب لم يلحق فججير، وكلهم ذكي الفؤاد، رفيع العماد، واري الزناد. فقال له هشام: ما سمعنا بك يا خالد في الأولين، ولا رأينا في الآخرين، وأشهد أنك أحسنهم وصفا، وألينهم عطفا، وأعفهم مقالا، وأكرمهم فعلا.⁴²

والذي يظهر من رد هشام عبد الملك أن بلاغة خالد بن صفوان قد ألحقت الأثر بهشام ودفعت به إلى استحسان كلامه، والثناء عليه بالمديح.

3- حجاجية البلاغة الشعرية/ مرحلة العباسيين:

يكاد العصر العباسي لا يختلف هو أيضا عما سبقه من عصور أدبية على الرغم من توسع دولة الإسلام وفرض سيطرتها على الكثير من الأمصار، واتساع نطاق المعارف والعلوم بفعل احتكاك بلغاء العرب بثقافات أمم أخرى كالفرس واليونان والهنود وغيرها، فقد ظلت ميزة الذوق تفرض منطلقها على البلاغة، ومن ذلك ما يروى أن "المعتصم جلس يوما للشرب فغناه بعض المغنين بقوله:

وَبُنُو الْعَبَّاسِي لَا يَأْتُونَ لَا ** وَعَلَى أَلْسِنِهِمْ حَفَّت نَعَم
زَيَّنْتُ أَحْلَامُهُمْ أَحْسَابَهُمْ ** وَكَذَلِكَ الْجَلْمُ زَيْنٌ لِلْكَرَمِ

فقال: ما أعرف هذا الشعر فلمن هو؟ قيل للبيد، فقال: وما للبيد وبني العباس؟ قال

المغني: إنما قال: (وبنو الريان لا يأتون لا) فاستحسن فعله ووصله⁴³

وما يروى عن أبي الفرج الأصبهاني أن بشارا استمع إلى عقبة بن ربيعة وهو ينشد عقبة بن سلم والي البصرة أرجوزته يمدحه بها، فلما فرغ منها قال له: هذا طراز لا تحسنه يا أبا معاذ، فغضب بشار وقال له: ألي يقال مثل هذا الكلام؟ أنا والله أرجز من أبيك وجدك (يريد العجاج)،

ومضى إلى منزله فألف أرجوزة بديعة، وغدا فأنشدها عقبة بن سلم وعنده عقبة بن ربيعة، وهي التي يستعملها بقوله:

يا طَلَّلَ العَجَى بِذَاتِ الصَّمَدِ * بِاللَّهِ خَيْرٌ كَيْفَ كُنْتَ بَعْدِي

فطرب عقبة بن سلم وكافأه مكافأة كبيرة، وانكسر عقبة بن ربيعة انكساراً شديداً.⁴⁴ ولا يشك أحد أن القدرة على نظم بشار القصيدة بتلك الطريقة البديعة جعلت عقبة بن سلم يطرب من سماعها وتستحوذ على قلبه، واعترافاً بصنيع بشار بن برد الذي وصل إلى درجة عالية من إمتاع عقبة بن سلم وإقناعه كافأه وأنزله منزلته التي يستحقها من حيث علو قدمه في الشعر.

ما يمكن قوله إجمالاً أن البلاغة العربية في هذه المرحلة قد عكست جانباً من جوانب طبيعتها الإمتاعية الإقناعية معاً، وإن لم يكن للعرب سبق معرفة بعلة جمالياتها وجاذبيتها، لأن العرب في هذه المرحلة لم يكن لديهم من أسباب الحضارة وألوان الثقافة ما يسمح لهم بمحاولة تأييد الرأي بالعلة المعقولة والدليل الواضح⁴⁵ ويسلمنا هذا إلى تأكيد ماذهب إليه شوقي ضيف أنه قد " كان هناك ذوق عام دفع الشعراء ومن ورائهم من الخطباء إلى تحبير كلامهم وتجويده⁴⁶ ليؤدي الغرض المراد من إمتاع وإقناع تغذيهما السليقة ويؤطرهما الطبع.

مراجع البحث وإحالاته:

1. الموجز في تاريخ البلاغة، مازن المبارك، دار الفكر، بيروت، 1968م، ص: 32.
2. أخرجه الحاكم من رواية أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن العباس بإسناد حسن مرسل [الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، تصنيف: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تج: علي محمد معوض و عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 1994م، ج12، ص: 262.
- * . كأمثال الجاحظ، والرماني، وأبي هلال العسكري، والزمخشري، وغيرهم..
3. ينظر، البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تج: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م، ج1، ص: 88.
4. كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تج: علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1952م، ص: 16.
5. [المنافقون: 4]
6. [البقرة: 204]
7. نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر، تج: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، مقدمة المحقق، ص: 28.

8. التجديد في علوم البلاغة في العصر الحديث، منير محمد خليل ندا، رسالة لنيل درجة الدكتوراه غير منشورة، جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة، (د تا)، ص:12.
- 9- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، أحمد الهاشمي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط30، (د تا)، ص:274.
- 10- المصدر نفسه، ص:272.
- 11- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تح: أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د ط)، (د تا)، مج:1، ص:85.
- 12- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد الجرجاني، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، ط3، 1992م، ص:9.
13. البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط9، (د تا)، ص:10.
- 14- في حجاج النص الشعري، محمد عبد الباسط، إفريقيا الشرق، المغرب، (د ط)، 2013م، ص:34.
- 15- العمدة (في محاسن الشعر وآدابه ونقده)، ابن رشيق القيرواني، تح: محمد عبد القادر وأحمد عطا، مج:1، ص:46.
- 16- قضايا النقد الأدبي، بدوي طيبانة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، (د ط)، 1972م، ص:173.
17. التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، حمادي صمو، منشورات الجامعة التونسية، 1981م، (د ط)، ص:24.
- 18- الرسالة الموضحة (في ذكر سرقات المتنبي)، أبو علي بن الحسن الحاتمي، تح: محمد يوسف نجم، دار صادر- دار بيروت، بيروت، (د ط)، 1965م، ص:183.
19. شرح القصائد العشر، أبو زكريا يحيى بن علي الشيباني المعروف بالخطيب التبريزي، تح: محمد معي الدين عبد الحميد، مكتبة محمد علي الصبيح وأولاده بميدان الأزهر بمصر، (د ط)، (د تا)، ص:35.
20. العمدة، ابن رشيق القيرواني، تح: محمد معي الدين عبد الحميد، ط4، ج1، ص:58.
21. الإيجاز في كلام العرب ونص الإعجاز (دراسة بلاغية)، مختار عطية، دار المعرفة الجامعية، جامعة المنصورة، (د تا) (د ط)، ص:59.
22. الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، محمد هاشم عطية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط3، 1936م، ص:141.
23. ينظر، الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، محمد هاشم عطية، ص:57.
24. الفلسفة والبلاغة (مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي)، عمارة ناصر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009م، ص:14.
25. [إبراهيم:04]
26. الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، محمد هاشم عطية، ص:17.
27. إتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، دار مصر للطباعة، (د ط)، (د تا)، ص:466.
28. الموجز في تاريخ البلاغة، مازن المبارك، ص:33.
29. المصدر نفسه، ص:34.

30. نقد النثر، أبو الفرج قدامة بن جعفر، تح: طه حسين بك-عبد الحميد العبادي، مطبعة الأمير ببولاق، القاهرة، 1941م، ص:86.
- 31- رواه الإمام أحمد عن كعب بن مالك عن أبيه، نقلا عن: تفسير القرآن العظيم، الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الكتاب الحديث، ط1، (د تا)، ج3، ص:1522.
- 32- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت-لبنان، ط3، 1989م، ج1، رقم: [872]، ص:301.
- 33- الجمع بين الصحيحين (البخاري ومسلم)، محمد بن فتوح الحميدي، تح: علي حسين البواب، دار النشر/دار بن حزم، بيروت-لبنان، ط2، 2002م، ج4، رقم: [3446]، ص:173.
34. لسان العرب، ابن منظور، تح: ياسر سليمان أبو شادي و مجدي فتحي السيد، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، (د ط)، (د تا)، مج12، ص:281.
35. البيان العربي دراسة في تطور الفكرة البلاغية عند العرب، بدوي طبانة، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، ط7، 1988م، ص:18.
36. ينظر، الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، محمد هاشم عطية، ص:235.
37. الإيجاز في كلام العرب ونص الإعجاز (دراسة بلاغية)، مختار عطية، ص:58.
38. المصدر نفسه، ص:58.
39. المصدر السابق، ص:249.
40. نقد النثر، قدامة بن جعفر، ص:81.
41. كتاب ذيل الأمالي والنوادر، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، طبع على نفقة ملتزمه: إسماعيل يوسف بن دياب، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، ط2، 1926م، ج7، ص:8.
42. الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، محمد هاشم عطية، ص:157.
43. المصدر نفسه، ص:249.
44. تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط16، 1966م، ص:144.
45. التجديد في علوم البلاغة في العصر الحديث، منير محمد خليل ندا، ص:12.
46. البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، ص:10.